الفصل الثامن

المناجاة

ولما خلت لمياء في تلك الغرفة تصورت ما أصابها من الانتقال في ذلك اليوم. باتت أمس في فسطاط أبيها خارج القيروان وهى الآن في قصر الخليفة المعز لدين الله معززة مكرمة. وتذكرت أن المعز من نسل الإمام علي وفاطمة الزهراء فاختلج قلبها من الفرح لحصولها على الحظ بالتقرب من ذلك الدم الطاهر والشرف العظيم — ومشت إلى شرفة مطلة على الحديقة ولم تكد تجلس حتى تقاذفتها الهواجس وتذكرت خطيبها سالمًا وكانت قد أحبته ووطنت النفس على الاقتران به. فلما آن وقت العقد أخذت أسيرة مع أبيها ولم تعد ترى سالمًا ولا علمت أين هو. وكانت تعلم من أسراره ما لا يعرفه عمه وكان في ما أطلعها عليه من أغراضه أمور تنكرها عليه ولا يعلم عمه أبو حامد باطلاعها على تلك الأسرار ولعله لو علم لم يسمح بتقربها من المعز.

فأطرقت حينًا وهى غارقة في التفكير وجعلت تناجي نفسها قائلة: «أين أنت يا سالم لا. لا أصدق أنك قتلت.. لا. لم تقتل بل أنت مختبئ أو متنكر.. أو لعلك تفكر في ذلك الأمر.. ليتني أستطيع أن أراك لأطلعك على أمور تهون عليك العدول عن عزمك.. وأتخلص مما يعرضونه علي.. إني لا أحب الزواج إلا بك لأنى لم أحب سواك ولكنني مع ذلك لا أوافقك على عزمك لأن فيه خطرًا. آه أين أنت؟».

وهى في ذلك سمعت حركة وحديثًا في الحديقة فتحولت مجارى أفكارها نحو ما سمعته وجلست تتوقع أن ترى أحدًا وكانت قد ضفرت شعرها ضفيرتين جانبيتين ولفت رأسها بخمار كبير كالحبرة يغطى كتفيها وجنبيها. وما لبث أن سمعت خفق نعال على مقربة من النافذة فتراجعت وهى لا تزال تنظر نحو الحديقة. وإذا هى برجلين عرفت منهما القائد جوهر وبجانبه شاب في مقتبل العمر يظهر من ملامحه أنه ابنه الحسين وتذكرت ما قيل لها عن رغبته فيها فأحست بنفور وانزوت مخافة أن يقع نظره عليها

أما جوهر فكان ماشيا وعليه الجبة والقفطان وفوق رأسه العمامة الصغيرة وحولها الخمار وقد تقلد السيف. وفى مشيته وثبات قدميه ما يدل على أنه قائد عظيم وأما ابنه فكان في مثل لباسه لكنه لا يزال يانعًا وفى محياه نضارة الشباب مع هيبة القواد والبسالة بادية في عينيه وجبينه ولحظت لمياء وهى منزوية أن الحسين بن جوهر لما وصل إلى جانب غرفتها التفت كأنه يلتمس أن يرى أحدًا وسمعت أباه يقول له بصوت منخفض: «لا شك أنك لو رأيتها ما تمالكت عن الإعجاب بها لأنها جمعت بين مهابة الرجال ولطف النساء».

فقال الحسين: «إني لا أراجعك في شيء تراه.. وأنت أعلم منى وأوسع اختبارا لكنني لا أثق بأبيها ولا أظنك تجهل ما في خاطره و ...».

وكانا يتكلمان وهما ماشيان فلم تسمع لمياء من حديثهما إلا نتفًا فهمت منها إنهما يتحادثان بشأن خطبتها له فوقعت في حيرة وخافت أن يطلب منها الزواج به وهي عالقة القلب بسالم وإن كانت لا تعرف مقره.

وكانت لمياء مع بسالتها وقوة بدنها قوية العواطف إذا أحبت تمكن الحب من قلبها حتى يشغلها عن كل شاغل لا سيما وأن سالمًا أول شاب عرفته وأحبته.

ثم عادت فسمعت جوهر يخاطب ابنه وقد عادا من حيث أتيا وإنما الحديث فأصغت لعلها تسمع تتمة الكلام فسمعت جوهر يقول: «إن معاملة هؤلاء بالحسنى أولى بنا وأقرب إلى جمع القلوب وصاحب سجلماسة من أولى الأمراء بذلك..» ثم انقطع الحديث من البعد فأصبحت لمياء أشد رغبة في الاطلاع عليه فأصغت لسماعه عبثا. فقعدت وهى تصلح خمارها وتعمل فكرتها وإذا هى تسمع لغطًا فيه صوت أبيها فأجفلت ثم رأت أباها وجوهر ماشيين وجوهر يحتفى بحمدون ويلاطفه. ومن قوله له: «لا ريب أن مولانا المعز يقدر صاحب سجلماسة حق قدره وطالما ذكرك في غيابك وأثنى على علو همتك».

فقال حمدون: «نحن نفتخر أن نقوم بنصرة ابن فاطمة الزهراء».

ثم بعد الصوت وعلمت لمياء من هذا الحديث أن أباها وجوهر ذاهبان إلى المعز بزيارة وربما كان ذلك بشأنها. فاشتغل خاطرها لئلا يعدهم أبوها بها أو يخطبها للحسين وهى لا تريد. فمشت من غرفتها وهى تود أن تحضر تلك الجلسة لتعلم ما يدور بين أبيها والمعز بشأنها. ولكنها لم تجد وسيلة إلى ذلك إلا على يد أم الأمراء وكانت

تسمع بمشاركتها زوجها بالآراء أحيانا حتى كثيرًا ما كانت تحضر مجالس المداولة من وراء ستار.[١]

[١] المقريزي ج ١.